ميرون رابابورت [1]

تأملات في هجمات ٧ أكتوبر وما يكمن بين طياتها

في ٧ أكتوبر، بعد ساعات قليلة من هجوم حماس واتضاح أبعاده، تحدثت مع صديق فلسطيني من بيت لحم. ما حدث، قلنا لبعضنا البعض، كان «متوقعًا غير متوقع». من المتوقع أنه قبل ٧ أكتوبر بوقت طويل كان واضحًا لكلينا، بل لكل من تابع ما كان يحدث في غزة، أن الحصار المفروض على غزة محكوم عليه بالانفجار يومًا ما، وأنه كان من المستحيل سجن أكثر من مليوني شخص لأكثر من ١٥ عامًا والتوقع منهم قبول مصيرهم، وقبول محوهم من التاريخ.

من غير المتوقع أن قلة من الناس اعتقدت أن مقاتلي حماس يمكنهم بسهولة عبور الجدار الهائل الذي أقامته إسرائيل على الحدود مع غزة - فوق الأرض وتحت الأرض وفي الجو والبحر - والوصول إلى القواعد العسكرية الإسرائيلية والمجتمعات القريبة من الحدود دون أي صعوبة. صور الجرافة التي تسقط السياج المحيط بغزة، ودبابة إسرائيلية تحترق بجوارها، وسيارة تويوتا مع مقاتلي حماس المسلحين في وسط سديروت – لا يمكن لأي إسرائيلي، وربما أي فلسطيني، بما في ذلك قادة حماس، أن يتخيلها حتى صباح ٧ أكتوبر.

غير متوقع، على الأقل بالنسبة لي، كان مستوى العنف والقسوة الذي أظهره مقاتلو حماس، والمدنيون في غزة الذين رافقوهم أو تبعوهم، تجاه المدنيين الإسرائيليين الذين التقوا بهم في طريقهم.

١ كاتب وصحافي إسرائيلي ومن مؤسسي حركة "دولتان وطن واحد".

كان هدف نتنياهو النهائي من "إدارة الصراع" على مدى السنوات الـ ٣٠ الماضية ولا يزال محو التطلعات الوطنية الفلسطينية. وتحقيقًا لهذه الغاية، طور صيغة دمجت، من ناحية، توسيع المستوطنات في الضفة الغربية، ومحو الخط الأخضر، والتجاهل التام للقيادة السياسية الفلسطينية ومطالبها، مع الاستخدام الحذر نسبيًا للقوة العسكرية الإسرائيلية تجاه الفلسطينيين إلى جانب الفوائد الاقتصادية.

شباب وشابات في الحفل قتلوا بالمئات، عائلات بأكملها قتلت في بيوتها، نساء وأطفال وشيوخ اختطفوا إلى غزة. وذلك قبل أن تصبح شهادات الاعتداء الجنسي علنية. «يا لها من نظرة اعتقدت أنكم سترونها»، كتب جان بول سارتر، في إشارة إلى المظلوم (الجزائري) الذي يرفع رأسه بعد أن خلع الظالم (الفرنسي) حذاءه. ومع ذلك، كان من الصعب هضم شدة الكراهية في أعين سكان غزة الذين قتلوا المدنيين، ولا يمكن التنبؤ بها.

وجدت هجمات ٧ أكتوبر إسرائيل أكثر انقسامًا من أي وقت مضى، نتيجة تسعة أشهر من المظاهرات غير المسبوقة ضد الثورة القانونية التي حاول من خلالها ائتلاف بنيامين نتنياهو وبتسلئيل سموتريتش وإيتمار بن غفير الحد من أو ربما حتى القضاء على المؤسسات الديمقراطية التي يتمتع بها المواطنون اليهود في إسرائيل حتى الآن. لم تجلب هذه الاحتجاجات مئات الآلاف إلى الشوارع كل أسبوع فحسب، بل أحدثت أيضًا شرخًا في قدس أقداس المجتمع اليهودي في إسرائيل: أعلن آلاف الإسرائيليين أنهم سيتوقفون عن الخدمة في الاحتياط إذا استمرت الثورة القانونية. لكن عندما يتعلق الأمر بالقضية الفلسطينية، كانت الاختلافات في الرأي ضئيلة. كانت «إدارة الصراع» الخيار المفضل للغالبية العظمى من الجمهور اليهودي.

هذا التفكير بأن إسرائيل تستطيع «إدارة صراعها» مع الفلسطينيين قد دعم كل العمل السياسي لرئيس الوزراء بنيامين نتنياهو على مدى السنوات الـ ٣٠ الماضية. كان هدف نتنياهو النهائي ولا يزال محو التطلعات الوطنية الفلسطينية. وتحقيقًا لهذه الغاية، طور صيغة دمجت، من ناحية، توسيع المستوطنات في الضفة الغربية، ومحو الخط الأخضر، والتجاهل التام للقيادة السياسية الفلسطينية ومطالبها، مع الاستخدام الحذر نسبيًا للقوة العسكرية الإسرائيلية تجاه الفلسطينيين إلى جانب الفوائد الاقتصادية مثل تصاريح العمل في إسرائيل؛ ما أسماه نتنياهو «السلام الاقتصادي» من ناحية أخرى.

يمكن رؤية الانتصار الساحق لأطروحة «إدارة الصراع» لنتنياهو على وجه التحديد بعد أن فقد السلطة في العام ٢٠٢١، وحلت محله «حكومة التغيير» برئاسة نفتالي بينيت ويائير لابيد. هذه الحكومة ، التي مثلت يسار الوسط اليهودي - من بينيت، الذي ترأس ذات مرة مجلس يشع إلى ميرتس - تبنت رسميًا تقريبًا أطروحة «تقليص الصراع»، وهو اسم لمقال كتبه المؤرخ ميخا غودمان، الذي يعيش في مستوطنة بالقرب من أريحا، اقترح فيها على الإسرائيليين (اليهود بالطبع) التخلي عن فكرة أن الصراع يمكن أن ينتهي، سواء من خلال الضم أو بالانسحاب من الأراضي المحتلة وإقامة دولة فلسطينية، وبالتالي فإن الطريقة الوحيدة هي «تقليصه» من خلال استمرار السيطرة العسكرية الإسرائيلية من جهة ومنح «إغاثة» اقتصادية للفلسطينيين من جهة أخرى.

التقى غودمان بانتظام مع بينيت ولابيد وقدم دورات تدريبية لأعضاء أحزاب الائتلاف، حتى توج في مقابلة مع صحيفة «هآرتس» في كانون الأول ٢٠٢١ بأنه «المفكر الأكثر نفوذًا في الحكومة الإسرائيلية». كما تبنى بينيت ولابيد بسعادة اتفاقيات أبراهام التي وقعها نتنياهو قبل عام مع الإمارات والبحرين، استنادًا إلى فكرة أن إسرائيل يمكن أن تزدهر وتندمج في الشرق الأوسط مع استمرار الاحتلال وتجاهل القضية الفلسطينية. وهذا أيضًا ما كان وراء مفاوضات التطبيع

حقيقة أن المنظمات الفلسطينية نجحت في احتلال الأراضي داخل إسرائيل لأول مرة منذ العام ١٩٤٨ لم تقوض فقط الشعور بالأمن الكامن وراء أطروحة "إدارة الصراع"، لكنها أيضًا شككت في سبب وجود دولة إسرائيل في نظر اليهود - كونها المكان الآمن الذي يمكن لليهود الفرار إليه أينما كانوا مهددين في العالم.

التي أجراها نتنياهو مع السعودية بعد عودته إلى السلطة في نهاية العام ٢٠٢٢.

لقد وجه هجوم حماس في ٧ تشرين الأول/أكتوبر ضربة قاسية، وربما قاتلة، لأطروحة «إدارة الصراع»، وذلك تحديدًا لأنه نشأ من قطاع غزة، ومن المكان الذي اعتقدت إسرائيل أن بإمكانها «إدارته» بأفضل طريقة، من خلال مزيج من الردع العسكري (أي غارة جوية شديدة على كل صاروخ تطلقه المنظمات الفلسطينية)، وحصار مادي بسياج فوق الأرض وتحتها، وعزلة سياسية عن الضفة الغربية والعالم. وبيع الامتيازات الاقتصادية مثل دخول العمال مقابل «الهدوء».

حقيقة أن المنظمات الفلسطينية نجحت في احتلال الأراضي داخل إسرائيل لأول مرة منذ العام ١٩٤٨ لم تقوض فقط الشعور بالأمن الكامن وراء أطروحة «إدارة الصراع»، لكنها أيضًا شككت في سبب وجود دولة إسرائيل في نظر اليهود - كونها المكان الآمن الذي يمكن لليهود الفرار إليه أينما كانوا مهددين في العالم، وبالتأكيد بعد المحرقة في الحرب العالمية الثانية.

رمزيًا، في ٢١ تشرين الثاني، بعد شهر وأسبوعين من الحرب الحالية، أعلنت مبادرة «الحد من الصراعات»- وهي حركة تأسست في ضوء رؤية غودمان- تعليق أنشطتها. «يشعر الكثير منا أن افتراضات مهمة قد انهارت لكل من دولة إسرائيل ومعتقداتنا الفردية»، يُقرأ على موقع الحركة. في ضوء العنف الهائل في غزة، من السخف الحديث عن «الحدّ من الصراع».

أدى انهيار فكرة «إدارة الصراع» إلى خلق فراغ في المجتمع اليهودي الإسرائيلي. لكن في ذلك الفراغ لم يدخل خطاب مفاوضات مع الفلسطينيين حول إنهاء الاحتلال وتضميد جراح أسباب الصراع، بل العكس. إذا لم يكن من الممكن إدارة الصراع، قالت النخبة السياسية والعسكرية الإسرائيلية، فلنهزمه، ونهزم الفلسطينيين، على الأقل أولئك الذين يعيشون في غزة، مرة واحدة وإلى الأبد. ومن هنا جاء خطاب «القضاء على حماس»، «تسوية غزة بالأرض»، وحتى طرد الملايين من سكانها إلى مصر، كما هو مقترح في خطة صاغتها وزارة المخابرات. هذا المكتب ليس مهمًا في حد ذاته، لكن حقيقة أن خطة التطهير العرقي مطبوعة على ورق حكومي أمر مهم.

إن إدمان إسرائيل على الحل العسكري العنيف لـ «مشكلة غزة» - والذي أسفر حتى الآن عن مقتل ١٨٠٠٠ فلسطيني ، معظمهم من النساء والأطفال، مما أجبر ما يقرب من مليوني فلسطيني على مغادرة منازلهم والانتقال جنوبًا نحو الحدود مع مصر ، وتدمير أجزاء كبيرة من مدينة غزة ومناطق أخرى من قطاع غزة - يعتمد على تيارات عميقة في المجتمع اليهودي. في كتابه الأخير، «إطلاق النار وعدم البكاء»، حول العسكرة المتسارعة في المجتمع الإسرائيلي، يبين عالم الاجتماع البروفسور يعقيل ليفي كيف أن الخطاب السياسي قد أفسح المجال تمامًا للخطاب العسكري في المجتمع الإسرائيلي على مدى السنوات العشرين الماضية، وبالتالي، بشكل طبيعي تقريبًا وكما هو متوقع، في لحظة أزمة، تحولت النخبة أولًا إلى الحل المألوف لها، الحل العسكري.

تفسير آخر هو صعود اليمين القومي المسيحي في إسرائيل. حتى قبل ٧ أكتوبر ٢٠٢٣، سئم هذا اليمين من الوضع الراهن الذي يمثله نتنياهو وسعى إلى «القضاء» على القضية الفلسطينية مرة واحدة وإلى الأبد. في العام ٢٠١٧، نشر بتسلئيل سموتريتش، الذي كان آنذاك عضوًا هامشيًا في البرلمان في حزب

■ ٧ أكتوبر: «تحطّم فكرة هزيمة الفلسطينيين». (وكالات)

بينيت وهو الآن زعيم حزب ووزير المالية، «خطته الحاسمة»، التي قدمت للفلسطينيين ثلاثة خيارات: الموافقة على العيش تحت الحكم الإسرائيلي دون حقوق سياسية- أي في الفصل العنصري- أو الطرد أو حرب لا ترحم في نهايتها سيهزمون في النهاية.

تسببت أحداث أيار ٢٠٢١ ، التي كان فيها نضال فلسطيني متزامن في غزة والقدس الشرقية والضفة الغربية والمدن «المختلطة» داخل الخط الأخضر، في تشكيك عدد غير قليل من اليهود في رواية نتنياهو بأنه يمكن تجاهل الصراع مع الفلسطينيين، وتبنوا الخط الحربي الذي باعه لهم سموتريتش، ويقول إنه يجب هزيمة الفلسطينيين على الفور. كان هذا أحد أسباب نجاحه ونجاح شريكه العنصري المعلن بن غفير في انتخابات نهاية العام ٢٠٢٢ والمناصب العليا التي حصلوا عليها في الحكومة الحالية.

وقد تضررت جاذبية سموتريتش وأصدقائه في الجمهور اليهودي بشدة خلال «انقلاب النظام» الذي تم التعرف عليهم به، وفي استطلاعات الرأي يواجه حزب سموتريتش صعوبة في تجاوز العتبة الانتخابية البالغة ٣,٢٥ في المائة. لكن روح اليمين القومي المسيحي قوية جدًا في الجيش، ويمكن ملاحظة ذلك في بروز الاحتفالات الدينية التي تجري في المناطق التي احتلتها إسرائيل في غزة، وفي الشعارات والأغاني التي يرددها الجنود حول العودة إلى المستوطنات في غوش قطيف، وفي صرخات «عام يسرائيل حاي» عند رؤية انفجار جامعة أو محكمة في غزة. يمكنك

القول إن سموتريتش ربما يكون قد ضعف، لكن السموتريتشية حية وبصحة جيدة.

تحت كل هذه العمليات ، يختفي تيار أعمق. وعلى الرغم من أنهم أنكروا ذلك رسميًا، فإن اليهود أقاموا دولة في العام ١٩٤٨، وطردوا نصف الشعب الفلسطيني، ومنعوا عودتهم ودمروا قراهم. في اللحظة التي تواجه فيها الدولة اليهودية أزمة مع الفلسطينيين لم تعرف مثلها منذ عام ١٩٤٨، تعود إلى نمطها القديم: الطرد والهدم.

لكن كما هو متوقع، وغير متوقع بالنسبة لمعظم الإسرائيليين، لم تتحقق هذه «الخطة الحاسمة» حتى الآن، بعد شهرين ونصف من بداية الحرب، وربما لن تتحقق. وعلى الرغم من الدمار الهائل في غزة، فإن الفلسطينيين هناك لا ينوون الذهاب إلى أي مكان، ناهيك عن مغادرة وطنهم والانتقال بمئات الآلاف إلى مصر. مصر نفسها، وكذلك الأردن، أوضحت لإسرائيل، وعلى ما يبدو أيضًا للأميركيين الذين حاولوا مساعدة الإسرائيليين على تنفيذ خطة الهجرة القسرية إلى شبه جزيرة سيناء، أن محاولة ترحيل الفلسطينيين إلى مصر أو الأردن ستعتبر إعلان حرب.

لقد تمكن الجيش الإسرائيلي، كما هو متوقع، من احتلال أجزاء كبيرة من مدينة غزة والبلدات المحيطة بها والاستيلاء عليها، فضلًا عن أجزاء من خان يونس والمناطق المحيطة بها، لكن حتى المسؤولين والمعلقين الإسرائيليين، الذين تحدثوا قبل بضعة أسابيع فقط عن «فقدان حماس» السيطرة وأنها على وشك الانهيار، يعترفون الآن بأن هدف «القضاء على حماس» ربما لن يتحقق بالكامل، وأن جيوب المقاومة ستستمر ليس فقط في الأراضي التي لم تغزها إسرائيل بعد. ولكن أيضًا في المناطق التي يفترض أنها احتلتها منذ فترة طويلة، مثل بيت حانون وبيت لاهيا.

إن الخطوط العريضة التي يضغط الأميركيون من أجلها الآن - وقف العملية البرية الإسرائيلية الضخمة داخل المدن الفلسطينية في قطاع غزة وتخفيف القصف الجوي من أجل تقليل عدد الضحايا المدنيين الفلسطينيين - هي في الواقع اعتراف بأن حماس ستحتفظ بجزء كبير من قوتها العسكرية وتسيطر فعليًا على أجزاء كبيرة من قطاع غزة، على الأقل في المستقبل القريب.

وما يزيد من تفكيك التماسك الإسرائيلي هو قضية المختطفين. منذ بداية الهجوم البري في أوائل تشرين الثاني، قيل للجمهور الإسرائيلي إن «الضغط العسكري» فقط هو الذي يمكن أن يؤثر على حماس لإطلاق سراح الرهائن. لكن مع استمرار الحرب، يدرك المزيد والمزيد من الإسرائيليين أن هذه المعادلة خاطئة بكل بساطة. وإذا كانت حماس مستعدة في البداية للحديث عن صفقات جزئية - إطلاق سراح بعض المختطفين مقابل وقف القتال وإطلاق سراح عدد محدود من الأسرى الفلسطينيين من السجون الإسرائيلية - فقد شددت موقفها الآن وتطالب بوقف كامل لإطلاق النار مقابل إطلاق سراح جميع الرهائن، بالإضافة إلى إطلاق سراح جميع الأسرى الفلسطينيين من السجون الإسرائيلية.

في ضوء هذا الفهم، تصعد عائلات المختطفين نضالها وتطالب بـ «صفقة الآن». المزيد والمزيد من الشخصيات العامة الإسرائيلية، بما في ذلك رئيس الموساد السابق والجنرالات السابقون، يطالبون بصفقة «الجميع مقابل الجميع»، وهذا يعني إطلاق سراح جميع السجناء الفلسطينيين. يكتسب احتجاج عائلات المختطفين زخمًا، وعلى الرغم من أنه حذر من الهوية السياسية، فإنه يسوي خطوط الصدع التي نشأت في الجمهور الإسرائيلي خلال الاحتجاج ضد انقلاب النظام. أولئك الذين تظاهروا ضد نتنياهو قبل ٧ أكتوبر يتظاهرون ضده مرة أخرى.

تراجعت الثقة في نتنياهو، المتدنية أصلًا، إلى مستوى قياسي بعد الفشل المدوي للمخابرات والجيش الإسرائيلي في ٧ أكتوبر، وهو غير قادر على التعافي منه. إن التصور بأن نتنياهو يحاول منع إطلاق سراح الرهائن، وفي الواقع إنهاء الحرب، لمجرد أنه يخشى أنه سيتم عزله من منصبه بعد الحرب مباشرة، يكتسب أرضية في الرأي العام الإسرائيلي. في مثل هذه الحالة من انعدام الثقة في القيادة السياسية، وتعبئة الاحتياط التي تشل الاقتصاد، والجنود الذين يقتلون كل يوم، والشعور العام بأن أهداف الحملة العسكرية لم تعد واضحة، من الصعب مواصلة الحرب فترةً طويلة.

إذًا، انهار مفهوم «إدارة الصراع» في ٧ تشرين الأول/أكتوبر، وإذا كانت فكرة «هزيمة» الفلسطينيين قد تحطمت على حجر الأساس، فهل يعني ذلك أن

إذًا، انهار مفهوم "إدارة الصراع" في ٧ تشرين الأول/أكتوبر، وإذا كانت فكرة "هزيمة" الفلسطينيين قد تحطمت على حجر الأساس، فهل يعني ذلك أن المجتمع اليهودي مستعد للعودة إلى التفكير في حل سياسي للصراع مع الفلسطينيين؟ هل سيولد ما هو غير متوقع مما هو متوقع؟

المجتمع اليهودي مستعد للعودة إلى التفكير في حل سياسي للصراع مع الفلسطينيين؟ هل سيولد ما هو غير متوقع مما هو متوقع؟

في المناقشات حول «اليوم التالي» للحرب، تتحدث المؤسسة العسكرية والسياسية الإسرائيلية الآن عن نموذج للسيطرة العسكرية الإسرائيلية الكاملة على غزة، على غرار المنطقة (ب) من الضفة الغربية، جنبًا إلى جنب مع حكومة محلية فلسطينية توافق بطريقة أو بأخرى على العمل كمقاول من الباطن لإسرائيل. فرص حدوث ذلك ضئيلة جدًا، وإذا حدث، فهذا يعني العودة إلى الوضع الراهن نفسه الذي يريد الجميع في إسرائيل التخلص منه.

وأسفر استطلاع للرأي أجراه معهد ترومان في الجامعة العبرية في أوائل كانون الأول حول مسألة من يجب أن يحكم غزة بعد نهاية الحرب عن نتائج مثيرة للاهتمام. أيدت نسبة من ٢٢٪ من الإسرائيليين الحكم العسكري الإسرائيلي، وأيدت نسبة من ١٨٪ ضم إسرائيل لقطاع غزة، مما يعني أن ٤٠٪ يريدون السيطرة الإسرائيلية. في المقابل، قالت نسبة من ٦٠٪ أنها تفضل سيطرة غير إسرائيلية (قالت نسبة من ٢٣٪ أنها تفضل سيطرة قوات عربية، وقالت نسبة من ١٨٪ أنها تفضل القوات متعددة الجنسيات، وقالت نسبة من ١١٪ أنها تريد سيطرة السلطة الفلسطينية، وقالت نسبة من ٨٪ أنها تريد إجراء انتخابات في قطاع غزة). بعبارة أخرى، على الرغم من الخطاب القومي التحريضي حول «محو غزة»، يدرك معظم الإسرائيليين أن إسرائيل لن تحكم هناك.

عندما تنتهي الحرب، أو حتى عندما تتضاءل حدّتها، ستجد إسرائيل نفسها أضعف بكثير مما كانت عليه قبل ٧ أكتوبر. فقد ضعفت ثقتها بنفسها وقوتها، وازداد اعتمادها على الدول الأجنبية، أولًا وقبل كل شيء الولايات المتحدة، لكن أيضًا مصر وحتى قطر، بشكل كبير، وفَقَد تحالف الأحزاب اليمينية، الذي حقق قبل عام واحد فقط فوزًا سلسًا في الانتخابات، أكثر من ثلث قوته وفقًا لاستطلاعات الرأي، وهو متخلف عن أحزاب يسار الوسط والوسط.

إذا تم التوصل إلى ترتيب متفق عليه لإنهاء الحرب في غزة، وهو أمر غير مؤكد بالتأكيد، فمن المرجح أن يشمل استئناف المفاوضات السياسية بين إسرائيل والفلسطينيين، على ما يبدو تحت رعاية دولية. هل ستكون إسرائيل، التي ضعف يمينها وتضررت ثقتها بنفسها في قدرتها على الحفاظ على الوضع الراهن إلى الأبد، مستعدة لتقديم تنازلات لم تكن على استعداد للحديث عنها حتى في السنوات العشرين الماضية؟ في الوقت الحالي، يبدو هذا بعيدًا جدًا، ويرجع ذلك جزئيًا إلى رياح الانتقام والعنف التي تهيمن حاليًا على الخطاب الإسرائيلي، وأيضًا بسبب الأغلبية التي لا يزال اليمين يتمتع بها في البرلمان. لكن ربما يتغلب ما هو غير متوقع على المتوقع ، هذه المرة في اتجاه إيجابي.

(ترجمه عن العبرية طاقم «مدار»)